بأولية الماهية على الوجود، ويؤكدون أنَّ الوجود يسبق الماهية. فالإنسان عندهم يختلف عن الكائنات أو الأشياء الأخرى التي تتحدد ماهيتها قبل وجودها. إننا إذا تأملنا شيئاً ـ كالطاولة أو البيت أو السكين على سبيل المثال ـ ألفينا الصورة الذهنية لهذه الأشياء هي التي يستضيء بها الإنسان حين يريد أن يصنعها، ولن يستطيع أن ينجزها من غير هذه الصورة المسبقة. وتسمى هذه الصورة المسبقة «بالجوهر» أو «الماهية». وجوهر الطاولة أو البيت أو السكين هو مجموع الكيفيات التي تحدد بها وتدرك من خلالها، «كالطول، والعرض، والعمق، والشكل، واللون، والفائدة»[٣٤] وما إلى ذلك.

وعند المثاليين يختلف الأمر، فالإنسان في نظرهم يشبه الشيء المصنوع، فالإله، أثناء عملية الخلق، يتصور الإنسان أولاً ويضع له تصميماً هندسياً ذهنياً، أو مشروعاً مجرداً، ثم يحقق ذلك التصميم أو المشروع عملياً، وبهذا يطابق الإنسان صورة مسبقة له، أو جوهراً سابقاً على وجوده[٣٥].

إن الإنسان عند الوجوديين ـ وخاصة جان بول سارتر الذي بلور المذهب الوجودي في العصر الحديث، ونمى بذوره التي تعود إلى الكاتب الدانمركي «كيركجارد» والفيلسوفين الألمانيين «هيدجر»، و«كارل ياسيرز»[٣٦] ـ ليس مثل الأشياء تتكون ماهيته في ذهن الخالق أولاً ثم يوجد في الحياة بعد ذلك.. إن الإنسان عند الوجوديين كائن لا ماهية له.. إنه هو الذي يخلق ماهيته بنفسه، يخلق خيره وشره، وفضيلته ورذيلته وسائر صفاته الإنسانية، وذلك عن طريق إدراكه لذاته إدراكاً يستلزم الصيرورة المستمرة الدائمة، وهو بإدراكه يختلف تماماً بصيرورته هذه عن صيرورة الكائنات الأخرى، فصيرورة الحيوان حتمية قبلية لا دخل فيها للإدراك؛ فـ«تحول الثلج إلى سائل بالذوبان، والحديد إلى سائل يصهره، لا يكفي لمنحهما صفة الوجود»[٣٧] ما دام تحولاً غير ناتج عن الصيرورة الواعية الإرادية.

ويرى الوجوديون أن الإنسان حر في صيرورته الاختيارية، بل إن الحرية هي قدره؛ إذ قذف به إلى هذا العالم ليكون حراً في أفعاله ومواقفه وتشكيل